# الفصل الثاني

# الشهادة في كتاب دلائل الإعجاز

**أولاً : الشيخ ينوه بأهمية الشاهد.**

**ثانيًا : الشهادة في كتاب دلائل الإعجاز نوعان : ( قيقي ومجازي ).**

**ثالثًا : توظيف الشهادة بالمعنى الحقيقي في كتاب «دلائل الإعجاز» .**

أ – في التذكير بالتأصيل الشرعي لأهمية الشعر.

ب – في التذكير بالتأصيل العلمي لأهمية النحو.

**رابعًا : نماذج من توظيف الشهادة بالمعنى الحقيقي في كتاب «دلائل الإعجاز».**

١ – شهادة عمر بن الخطاب.

٢ – شهادة الحسن البصري.

٣ – شهادة سيبويه.

٤ – شهادة الجاحظ.

**خامسًا : توظيف الشهادة بالمعنى المجازي في كتاب «دلائل الإعجاز».**

**سادسًا : أهداف الشواهد في كتاب «دلائل الإعجاز».**

**سابعًا : الشيخ يربط البحث في الإعجاز بالدين والعقيدة.**

## أولاً: الشيخ ينوه بأهمية الشاهد:

نوه الشيخ عبد القاهر الجرجاني بأهمية الشاهد بالمعنى المجازي، و يقصد به «الدليل»، وهو ما يجمع على شواهد، وقد حدث ذلك أكثر من مرة، وفي أكثر من موضع في الكتاب:

**أولها**: عندما شبه الشاهد الشعري بالدواء، وشبه النحو بالنشرة الداخلية التي ترشدك إلى الطريقة المثلى للاستفادة من هذا الدواء، **فقال**:

«فسواء من منعك الشيء الذي ينتزع منه الشاهد والدليل، ومن منعك السبيل إلى انتزاع تلك الدلالة، والاطلاع على تلك الشهادة، ولا فرق بين من أعدمك الدواء الذي تستشفي به من دائك، وتستبقي به حشاشة نفسك، وبين من أعدمك العلم بأن فيه شفاء، وأن لك فيه استبقاء»[١].

**ثانيها**: عندما ساوى بين من يحرم عليك التعامل بالشعر، وبين من يمنعك من حفظ كتاب الله، **قائلًا**.

«كان الصاد عن ذلك صادا عن أن تعرف حجة الله تعالى، وكان مثله مثل من يتصدى للناس فيمنعهم عن أن يحفظوا كتاب الله تعالى ويقوموا به، ويتلوه ويقرؤوه، ويصنع في الجملة صنيعا يؤدي إلى أن يقل حفاظه والقائمون به والمقرئون له»[٢]

**ثالثها**: لما وعد المتلقي بالشاهد والدليل **بقوله**:

«وجملة ما أردت أن أبينه لك، أنه لا بد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجيده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة، وعلة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل». [٣]

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٩.
(٢) المصدر نفسه ص ٩.
(٣) المصدر نفسه ص ٤١

**رابعها:** عندما كان يوقظ همة المتلقي **بقوله:**

أيُّ أشبه بالفتى في عقله ودينه، وأزيد له في علمه ويقينه، أن يقلد في ذلك ويحفظ متن الدليل[١] وظاهر لفظه ولا يبحث عن تفسير المزايا والخصائص ما هي، ومن أين كثرت الكثرة العظيمة، واتسعت الاتساع المجاوز لوسع الخلق وطاقة البشر..... أم أن يبحث عن ذلك كله ويستقصي النظر في جميعه، ويتتبعه شيئا فشيئا، ويستقصيه بابا فبابا، حتى يعرف كلا منه بشاهده ودليله، ويعلمه بتفسيره وتأويله، ويوثق بتصوره وتمثيله، ولا يكون كمن قيل فيه:

**يقولون أقوالا ولا يعلمونها ولو قيل هاتوا حققوا لم يحققوا**[٢]

## ثانيًا: الشهادة في كتاب دلائل الإعجاز نوعان:

### حقيقي ومجازي:

إذا كان معنى الشاهد في لغتنا العربية المعاصرة قد استقر على معنيين، كما ورد في بداية

---

(١) **المقصود بمتن الدليل هو قولهم** : «دليلنا : عجز العرب عن الإتيان بمثله»،وإذا عجز العرب ، فغيرهم أعجز ، وفي ذلك دليل على إعجاز القرآن ، وقد ذكر الخطابي هذا الوجه ، وجعله أول وجوه الإعجاز المذكورة ، ولكنه رفضه بقوله : «قلت : هذا – من وجوه ما قيل فيه – أبينها دلالة ، وأيسرها مؤونة ، وهو مقنع لمن تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه» ثلاث رسائل ص ٢٢. وإن كنت أعتقد أن عبارته ناقصة ، وأنه كان يريد أن يقول : «وهو مقنع لمن لم تنازعه نفسه» ليستقيم المعنى ، ويتوافق مع مذهب الخطابي في الرسالة. كذلك ذكر الشيخ عبد القاهر الجرجاني ما سماه «متن الدليل» بقوله : «فإن قال منهم قائل : إنك قد أغفلت فيما رتبت ، فإن لنا طريقا إلى إعجاز القرآن غير ما قلت ، وهو علمنا بعجز العرب عن أن يأتوا بمثله ، وتركهم أن يعارضوه ، مع تكرار التحدي عليهم ، وطول التقريع لهم بالعجز عنه. ولأن الأمر كذلك ، ما قامت به الحجة على العجم قيامها على العرب ، واستوى الناس قاطبة ، فلم يخرج الجاهل بلسان العرب من أن يكون محجوجا بالقرآن» دلائل الإعجاز ص ٩ – ١٠

(٢) المصدر نفسه ص ٤٠ ، والبيت ينسب **لأبي الأسود الدؤلي** : وابو الأسود الدؤلي هو ظالم بن عمرو بن سفيان، كان معدودا من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان ، والحاضري الجواب من التابعين ، كان مشهورا بمصاحبته لعلي بن أبي طالب ، وكان عالي المكانة بالبصرة في الحديث والفقه. ويحدد بعض الأدباء وفاته بحصول الوباء سنة ٦٩ هـ ، وهو أول من وضع أبواب النحو. وشعره ليس على مستوى رفيع من الوجهة الفنية ، وأشهر أبياته قوله : **لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم** . انظر ترجمته في : تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ١/ ١٧١ – ١٧٢ ، الأعلام ٣/ ١٣٦ – ٢٣٧ ، معجم المؤلفين ٢/ ٢٠ ، تاريخ التراث العربي م٢ ج٣ ص ٤٩.

البحث وهما: المعنى الحقيقي للشاهد: وهو الذي يجمع على شهود، وأشهاد. والمعنى المجازي للشاهد: وهو الذي يجمع على شواهد، وهو المقصود بالدراسة في هذا البحث، فإن الشيخ عبد القاهر الجرجاني – وهو صاحب نظرية في النحو، وصاحب كشف جديد لم يسبق إليه – كان بحاجة إلى كلا النوعين من الشهادة. كان بحاجة إلى الشهادة بمعناها الحقيقي، وكان بحاجة إلى الشهادة بمعناها المجازي.

## ثالثًا: توظيف الشهادة بالمعنى الحقيقي في كتاب دلائل الإعجاز:

لما كان كل من الشعر والنحو هو أحد العمد والأصول التي بُني عليها كتاب «دلائل الإعجاز» فلم يكن أمام الشيخ من بد إلا أن يصدر بهما كتابه، مبتدًا بتذكير المتلقي بالتأصيل الشرعي للشعر، ومثنيا بتذكيره بالتأصيل العلمي لأهمية النحو، معتمدا في ذلك على الثقات في كلا الجانبين.

### أ – في التذكير بالتأصيل الشرعي لأهمية الشعر:

تتمثل هذه الأهمية في أقوال الرسول ﷺ، وأقوال صحابته الكرام رضي الله عنهم جميعا من أمثال: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وحسان بن ثابت، وأقوال زوجاته رضي الله عنهن من مثل: السيدة عائشة[1]، والسيدة سودة بنت زمعة[2]، كل ذلك في سياق تذكيره بالتأصيل الشرعي لمكانة الشعر بعد الإسلام،ابتداء من عهد النبوة، وإلى ما يشاء الله.

---

(١) **عائشة بنت أبي بكر** : هي عائشة أم المؤمنين ، أبوها أبوبكر الصديق عبد الله بن عثمان من قريش ، كانت رضي الله عنها أفقه نساء المسلمين ، وأعلمهن بالدين والأدب ، وكانت تكنى بأم عبد الله. تزوجها النبي ﷺ في السنة الثانية من الهجرة بعد وفاة السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وكانت أحب نسائه إليه ، وأكثرهن رواية للحديث عنه ، وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض فتجيبهم. توفيت بالمدينة سنة ٥٨ هـ. انظر ترجمتها في الأعلام ٣/ ٢٤٠.

(٢) **سودة بنت زمعة** : هي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس من لؤي من قريش ، إحدى أزواج النبي ﷺ، كانت في الجاهلية زوجة سكران بن عمرو بن عبد شمس ، ثم أسلمت وأسلم زوجها وهاجرا إلى الحبشة في الهجرة الثانية ، ثم عادا إلى مكة ، فتوفي سكران فتزوجها النبي ﷺ بعد وفاة خديجة رضي الله عنها. توفيت السيدة سودة بالمدينة المنورة سنة ٥٤ هـ. انظر ترجمتها في : الأعلام ٣/ ١٤٥.

**ب – في التذكير بالتأصيل العلمي لأهمية النحو:**

وكان احتياجه لها في التذكير بالتأصيل العلمي، كاحتياجه لها في التذكير بالتأصيل الشرعي متمثلا ذلك في أقوال العلماء الذين لا يتطرق الشك إلى أقوالهم، ولا يقدر أحد على الطعن فيهم، نظرًا لتفوقهم كل في مجاله، من مثل: سيبويه[١] (١٤٠ هـ - ١٨٠ هـ)، والأصمعي[٢] (+١٢٢هـ - +٢١٤)، والأخفش[٣] (ت ٢١٥ هـ)، والجاحظ[٤] (١٥٩هـ - ٢٥٥ هـ)، والبحتري[٥] (٢٠٦ هـ - ٢٨٤ هـ)، وأبي العباس

---

(١) **سيبويه**: هو أبو بشر أو (أبو الحسن) عمرو عثمان بن قنبر، وكانت في لسانه حبسة، وكان جميلا أنيقا، أما سيبويه بالفارسية فهي رائحة التفاح. كان سيبويه إمام النحاة، وأشهر تلاميذ الخليل. توفي عن نيف وأربعين سنة، وذلك سنة ١٧٧ هـ، على اختلاف في الروايات. أما كتابه فهو أقدم مصنف جمع مسائل النحو العربي كافة، لم يصنع قبله ولا بعده مثله. انظر ترجمته في: تاريخ الأدب العربي ٢/ ١٣٤، الأعلام ٥/ ٨١، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٢/ ٥٨٤.

(٢) **الأصمعي**: هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب الباهلي، كان من تلاميذ أبي عمرو بن العلاء، وأخذ عن خلف الأحمر أيضا. توفي الأصمعي بمرو سنة ٢١٦ هـ، وقيل ٢١٥ هـ. انظر ترجمته في: تاريخ الأدب العربي ٢/ ١٤٧، الأعلام ٤/ ١٦٢، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٢/ ٣٢٠.

(٣) **الأخفش**: هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة، كان مولى بني مجاشع بن دارم، وأصله من بلخ، فهو إذن فارسي النسب، وكان من تلاميذ سيبويه، وأعظم آثاره هو حفظه كتاب أستاذه، فقد روي عنه الكتاب، وإن خالف سيبويه في كثير من آرائه، وعده التبريزي من شيوخ العروض، فقد زاد في العروض بحر الخبب. والأخفش نحوي عالم باللغة والأدب، صنف العديد من المصنفات منها: تفسير معاني القرآن، وشرح أبيات المعاني، والاشتقاق، ومعاني الشعر، وكتاب الملوك، والقوافي، وقيل إنه كان شديد البخل، فأبهم كثيرا من مصنفاته ليضطر الناس إلى تعلمها عليه لقاء أجر. توفي الأخفش سنة ٢٢١ هـ، وقيل ٢١٥ هـ. انظر ترجمته في: تاريخ الأدب العربي ٢/ ١٥١، الأعلام ٣/ ١٠١، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١/ ٧٦٩.

(٤) سبقت ترجمته.

(٥) **البحتري**: هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي، ولد في منبج، أو قرية قريبة منها سنة ٢٠٦ هـ، واتصل في شبابه بأبي تمام المنتمي إلى قبيلته. ولما قدم البحتري بغداد مدح المتوكل وكبار رجال حاشيته، وأقام هناك زمنا طويلا، فلما أفضت الخلافة للمستعين ومن بعده إلى المعتز لم يحظ البحتري منهما بطائل، فغادر بغداد ورجع إلى بلده مخيب الأمال، وثأر لنفسه فهجا كلا الخليفتين هجاء قبيحا. قيل لأبي عمرو بن العلاء أي الثلاثة أشعر؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان وإنما الشاعر البحتري، وكان يقال لشعره: سلاسل الذهب. توفي البحتري في منبج، وقيل في حلب سنة ٢٨٤ هـ. انظر ترجمته في: معاهد التنصيص ١/ ٢٣٤، تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ج٢ ص ٤٨ – ٥٠، الأعلام ٨/ ١٢١، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٤/ ٧٧، تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين م٢ ج٤ ص ١٣٤.

ثعلب[١](٢٠٠ هـ - ٢٩١ هـ)، وغيرهم ممن ذكرهم الشيخ بالاسم، وأورد لهم أقوالا عزز بها نظريته، ونصر بها كشفه، وهذا إنما يدل على تبجيل الشيخ للعلماء، ومعرفته لأقدارهم، وفعله هذا هو فعل كل عالم رباني، أخلص للحق، وتجرد من هواه.

## رابعًا: نماذج من توظيف الشهادة بالمعنى الحقيقي في الكتاب:

هذه أربع شهادات بالمعنى الحقيقي في كتاب «دلائل الإعجاز»، اثنتان منها تخصان التذكير بالتأصيل الشرعي لمكانة الشعر، واثنتان تتعلقان بالتأصيل العلمي لنظرية معاني النحو.

### ١ - شهادة عمر بن الخطاب:

ذكرها الشيخ ليدعم بها وجهة نظره في أن راوي الشعر حاكٍ، وليس على الحاكي عيب؛ بدليل أن الله سبحانه وتعالى قد حكى كلام الكفار، فالعبرة بالغرض من رواية الشعر، **قال**: «وقد استشهد العلماء لغريب القرآن وإعرابه بالأبيات فيها الفحش، وفيها ذكر الفعل القبيح، ثم لم يعبهم ذلك، إذ كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفحش ولم يريدوه، ولم يرووا الشعر من أجله».[٢]

ثم ذكر الدليل من استشهاد من لا يشك أحد في علمه أو زهده أو ورعه، وهو عمر ابن الخطاب ﷺ عندما جاءته حلل من اليمن، وأراد توزيعها على الناس **قال الشيخ**:

> فدخل عليه زيد بن ثابت ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء المحمدون[٣] بالباب يطلبون الكسوة. فقال: ائذن لهم يا غلام. فدعا

---

(١) **أبو العباس ثعلب**: هو أحمد بن يحيى ثعلب مولى بني شيبان وإمام الكوفيين في زمانه. ولد سنة ٢٠٠ هـ وأخذ عن الفراء، وله ثماني عشرة سنة، وبلغ خمسا وعشرين سنة وهو عنده. كما أخذ عن ابن الأعرابي أيضا، وأخذ عن البصريين ولكنه التزم مذهب الكوفيين. ومن مؤلفاته: الفصيح، وقواعد الشعر، وشرح ديوان زهير، وشرح ديوان الأعشى، ومجالس ثعلب، وسماه «المجالس»، ومعاني القرآن، وما تلحن فيه العامة، ومعاني الشعر، والشواذ، وإعراب القرآن وغيره. وثقل سمع ثعلب في آخر حياته، ثم أصيب بالصمم، فانصرف يوم جمعة من المسجد بعد العصر فصدمته دابة لم يسمع وقع حوافرها فسقط في هوة من الطريق ولم يقدر على القيام، فحمل إلى منزله ومات لتوه سنة ٢٩١ هـ. انظر ترجمته في: تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ٢/ ٢١٠، الأعلام ١/ ٢٦٧، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١/ ٣٢٣.

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٢

(٣) المحمدون هم محمد بن جعفر بن أبي طالب، ومحمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن طلحة بن عبيد الله، ومحمد بن حاطب.

بحلل، فأخذ زيد أجودها حلة وقال: هذه لمحمد بن حاطب، وكانت أمه عنده، وهو من بني لؤي.

فقال عمر ﷺ: أيهات أيهات! وتمثل بشعر عمارة بن الوليد[١]:

أَسَرَّكِ لَمَّا صُرِّعَ القومُ نَشْوَةً ... خُرُوجِي منها سالما غير غارمِ

بريئا، كأني قبلُ لم أكُ منهمُ ... وليس الخِداعُ مرتضىً في التنادمِ[٢]

ردها. ثم قال: ائتني بثوب فألقه على هذه الحلل. وقال: أدخل يدك فخذ حلة وأنت لا تراها، فأعطهم. قال عبد الملك[٣]: فلم أر قسمة أعدل منها»[٤].

وموضع هذه الشهادة أن عمر بن الخطاب ﷺ، وهو من هو ورعا وتقوى، وخوفا من الله، ها هو ذا يستشهد بالشعر فيه ذكر الخمر، ومجالسها، وما يصاحب تلك المجالس من إظهار النشوة بسبب تعاطيها. فلو كان التعاطي مع الشعر وروايته مما ينكر لكان عمر ابن الخطاب ﷺ أولى بهذا.

---

(١) **عمارة بن الوليد**: هو أبو فائد عمارة بن الوليد بن المغيرة، ويقال له الوحيد، وكان فخورا متعرضا لكل ذي عارضة من قريش. كان عمارة ابنا لقرشي مشهور هو الوليد بن المغيرة (المتوفى سنة ١ هـ)، وكان له مهاجاة مع مسافر بن أبي عمرو بن أمية، وقيل إنه سافر مع عمرو بن العاص إلى الحبشة، وقيل إنه كان كثير الشعر. وقد وصل إلينا من شعره نحو عشرين بيتا في الأغاني بصفة خاصة عند ذكر مسافر. وهو أحد أزواد الركب؛ وسموا بذلك لأنهم كانوا لا يدعون غريبا ولا مارًّ طريق ولا محتاجا يجتاز بهم إلا أنزلوه، وتكفلوا به حتى يظعن، وقيل سموا بذلك لأنه لم يكن يتزود معهم أحد في سفره، وكانوا يطعمون كل من يصحبهم، ويكفونه الزاد، وكان ذلك خلقا من أخلاق قريش، ولكن لم يسم بهذا الاسم إلا هؤلاء الثلاثة، وهم: مسافر بن أبي عمرو بن أمية، وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وأبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. انظر ترجمته في: الأغاني ٩/ ٦١ عند ذكر مسافر، والأغاني ١٨/ ١٢٧، معجم الشعراء للمرزباني ص ٧٦، تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين م٢ ج٢ ص ٢٨٤.

(٢) لا يجوز الخداع بين الندماء والأصحاب.

(٣) عبد الملك هو: عبد الملك بن عمير راوي الحديث.

(٤) دلائل الإعجاز ١٣ – ١٤.

**٢ – شهادة الحسن البصري[١]:**

قال الشيخ:»قالوا: وكان الحسن البصري رحمه الله يتمثل في مواعظه بالأبيات من الشعر، وكان من أوجعها عنده:

الْيَومَ عندكَ دَلُّهَا وَحَدِيثُهَا وغَدَا لِغَيْرِكَ كَفُّهَا وَالْمِعْصَمُ[٢])

وشهادة الحسن البصري لا تختلف في غرضها عن الغرض من شهادة عمر بن الخطاب، في أن وظف الحسن البصري في مواعظه في ذم الدنيا، الشعر الوارد في مذمة بعض النساء.

**٣ – شهادة سيبويه[٣]:**

إذا كانت شهادة كل من عمر بن الخطاب، والحسن البصري، وغيرها من الشهادات الأخرى التي ذكرها الشيخ وهي كثيرة ومتنوعة قد وردت في السياق الديني والشرعي الذي يمس مكانة الشعر في الشريعة، ومدى تقبلها للتعامل معه، فإن شهادة سيبويه قد

---

(١) الحسن البصري: ولد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري في المدينة المنورة سنة ٢١ هـ، وكنيته أبو سعيد، سيد التابعين، كان أبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري من سبي ميسان، وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم. نشأ الحسن البصري في وادي القرى، فاشتغل بطلب الحديث، وجمع كل فن من علم وزهد وورع، ولكنه لم يكن يريغ مسائل الكلام، فكان يتجنب الخوض فيها بقدر الإمكان، بيد أنه كان ممن أسسوا مذهب الصوفية بزهده وتقواه. وكان إمام أهل البصرة، وعظمت هيبته في قلوبهم، فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم لا يخاف في الحق لومة لائم. قال الغزالي: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء، وأقربهم هديا من الصحابة، وكان غاية في الفصاحة، تنصب الحكمة من فيه، وله مع الحجاج ابن يوسف مواقف وقد سلم من أذاه. ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه: إني ابتليت بهذا الأمر فانظر لي أعوانا يعينونني عليه. فأجابه الحسن: أما أبناء الدنيا فلا تريدهم، وأما أبناء الأخرة فلا يريدونك فاستعن بالله، وأخباره كثيرة. وقد تربى الحسن البصري في كنف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واستكتبه الربيع بن زياد وإلى خراسان في عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ. وتوفي بالبصرة سنة ١١٠ هـ، وقبره مشهور بها إلى الآن، وينسب للحسن البصري تفسير للقرآن برواية عمرو بن عبيد. انظر ترجمته في: تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ١ / ٢٥٧، الأعلام ٢/ ٢٢٦، تاريخ التراث العربي م١ ص ٧٢.

(٢) ذكره الشيخ بدون نسبة، ولم أعثر على قائله، وفي الإنترنت نسب للحسن البصري نفسه. دلائل الإعجاز ص ١٣.

(٣) سبقت ترجمته.

وظفها الشيخ في تثبيت قدم الكشف الذي توصل إليه؛ لأن أساس النظرية يقوم على «معاني النحو»، وكتاب سيبويه هو النحو.

وقد تكرر ذكر سيبويه في الدلائل كثيرا، تأييدا لنظرية «معاني النحو»، ولكن من أقوى الأدلة في هذه النظرية هو توظيف الشيخ لشهادة سيبويه في الشيء وعكسه، ليعزز به فكرته أن المعنى النحوي ليس هو قاعدة مطردة، وإنما يحسن بحسب ما يقتضيه المعنى، فقد وظف الشيخ شهادة سيبويه في هذا النموذج المختار في تقديم أمرين متعاكسين :

أ – مرة في الغرض من تقديم المعرفة.

ب – ومرة في الغرض من تقديم النكرة.

لأن التقديم والتاخير إنما يحسن بحسب المعاني و الأغراض، وليس مطلوبا لذاته.

أ – ففي الغرض من تقديم المعرفة، ذكر الشيخ أن من أغراض تقديم الفاعل التنبيه له، وأن المقصود من الخبر إنما هو التنويه بذكره، كما في قول عروة بن أذينة[1]:

سُلَيْمَى أَزْمَعَتْ[2] بَيْنَا فَأَيْنَ تَقُولُها أَيْنَا

---

(١) **عروة بن أذينة** : اسمه يحيى بن مالك بن الحارث الليثي ، ولقبه «أذينة» ، وكنيته : أبو عامر ، شاعر غزل مقدم من أهل المدينة في العصر الأموي ، كان نصيرا للزبيريين ، واتصل بشعراء المدينة وبالمغنين من مدرسة المدينة فلحنوا له شعرا ، قيل إن الفرزدق والأحوص كانا يطلبانه ، وكان جرير معجبا بشعره. وهومعدود من من الفقهاء والمحدثين أيضا ، ولكن الشعر أغلب عليه ، روى عنه مالك بن أنس ، وعبيد الله بن عمر العدوي ، وهو القائل :

لقد علمت وما الإسراف من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى إليه فيعييني تطلبه ولو قعدت أتاني لا يعنيني

وفد عروة على هشام بن عبد الملك ، فقال له : أنت القائل : لقد علمت...الأبيات. هلا جلست حتى يأتيك ؟ فسكت ، فلما خرجوا جلس على راحلته حتى أتى المدينة ، ثم أمر هشام بجوائز الوفد وفقد عروة ، فأخبر بخبره ، فقال : جزم والله ، ليأتينه ذاك في بيته أضعف ما أعطي غيره. توفي عروة سنة ١٣٠ هـ. انظر ترجمته في : الشعر والشعراء ص ١٥٥ ، المؤتلف والمختلف ص ٦٥ ، الأعلام ٤/ ٢٢٧ ، تاريخ التراث العربي م٢ ج٣ ص ١٧٨ .

(٢) أزمعت ، قال الخليل : أزمع على الأمر : ثبت عليه عزمه. وقال الكسائي : يقال أزمع الأمر ولا يقال أزمع عليه ، وقال الفراء : يقال أزمع الأمر ، وأزمع عليه ، كما يقال أجمع الأمر وأجمع عليه. مختار الصحاح باب الزاي ص ٢٧٤ – ٢٧٥.

قال الشيخ موضحا هذا الغرض، وهو أن في تقديم الفاعل التنبيه لذكره:«وذلك أنه ظاهر معلوم أنه لم يرد أن يجعل هذا الإزماع لها خاصة، ويجعلها من جماعة لم يزمع البين منهم أحد سواها، هذا محال. ولكنه أراد أن يحقق الأمر ويؤكده، فأوقع ذكرها في سمع الذي كلم ابتداء ومن أول الأمر، ليعلم قبل هذا الحديث أنه أرادها بالحديث، فيكون ذلك أبعد له من الشك»[١]

ثم دعم رأيه هذا بشهادة سيبويه بقوله: «وهذا الذي قد ذكرت من أن تقديم ذكر المحدث عنه يفيد التنبيه له، قد ذكره صاحب الكتاب في المفعول، إذا قدم فرفع بالابتداء، وبني الفعل الناصب كان له عليه، وعدي إلى ضميره فشغل به كقولنا في: «ضربت عبد الله»، «عبد الله ضربته»، فقال: وإنما قلت: «عبد الله» فنبهته له ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء»[٢]

ب – وأما في الغرض من تقديم النكرة فإنما يتم ذلك عندما يقصد بها إلى الجنس، كما في قولهم: «شر أهر ذا ناب»[٣]، **قال** الشيخ: «وقولهم: «**شر أهر ذا ناب**»، إنما قدم فيه «شر» لأن المراد أن يعلم أن الذي أهر ذا الناب هو من جنس الشر لا جنس الخير، فجرى مجرى أن تقول: «رجل جاءني»، تريد أنه رجل لا امرأة، وقول العلماء: إنه إنما يصلح لأنه بمعنى: «**ما أهر ذا ناب إلا شر**» بيان لذلك»[٤]

ثم زاد الشيخ هذا القول توضيحا في أن النكرة لا يقصر عليها إلا إذا كانت بمعنى الجنس، فإن لم يكن كذلك كان القصر على مجهول، **قال** الشيخ: «وإنما يتصور قصر الفعل على معلوم، ومتى لم يرد بالنكرة الجنس لم يقف منها السامع على معلوم حتى يزعم أني أقصر له الفعل عليه، وأخبره أنه كان منه دون غيره»[٥]

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٣٠

(٢) المصدر نفسه ص ١٣١

(٣) قال المحقق : وهو مثل يضرب عند ظهور أمارات الشر ومخايله ، و«أهر» حمله على «الهرير» ، وهو أن يكشر السبع عن أنيابه ويصوت إذا رأى ما يفزعه ، و«ذو الناب» : السبع. .

(٤) المصدر نفسه ص ١٤٣.

(٥) المصدر نفسه ص ١٤٣ - ١٤٤

ثم جاءت شهادة سيبويه قولا فصلا لا مزيد عليه فقال:

وإذا اعتبرت ما قدمته من قول صاحب الكتاب، إنما قلت: «عبد الله»، فنبهته له ثم بنيت عليه الفعل، وجدته يطابق هذا، وذاك أن التنبيه لا يكون إلا على معلوم، كما أن قصر الفعل لا يكون إلا على معلوم، فإذا بدأت بالنكرة فقلت: «رجل»، وأنت لا تقصد بها الجنس، وأن تعلم السامع أن الذي أردت بالحديث: رجل لا امرأة، كان محالا أن تقول: إني قدمته لأنبه المخاطب له، لأنه يخرج بك إلى أن تقول: إني أردت أن أنبه السامع لشيء لا يعلمه في جملة ولا تفصيل، وذلك ما لا يشك في استحالته فاعرفه[١]

**٤ – شهادة الجاحظ:**

وظف الشيخ للجاحظ شهادات كثيرة في الكتاب، ولأغراض مختلفة، ولكنه في هذا الموضع وظفها تأييدا لنعيه على أولئك الذين يجعلون الغرابة في اللفظ، مما يوجب له الوصف بالفصاحة. قال الشيخ: «وكيف بأن يدخل الغريب في باب الفضيلة، وقد ثبت عنهم أنهم كانوا يرون الفضيلة في ترك استعماله، وتجنبه»[٢]

ثم استدل على صحة هذا المذهب بقول الجاحظ: «ورأيتهم يديرون في كتبهم أن امرأة خاصمت زوجها إلى يحيى بن يعمر، فانتهرها مرارا، فقال له يحيى: أنْ سألتك ثمن شَكْرِهَا وشَبْرِك أنشأت تَطُلُّهَا وتضْهَلُهَا»[٣]!. ثم قال: وإن كانوا قد رووا هذا الكلام، لكي يدل على فصاحة وبلاغة، فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة»[٤]

فلا رأي بعد رأي الجاحظ، ولا قول بعد قوله، في أن الغرابة في اللفظ لا توجب للكلام صفة الفصاحة. و هذا المسلك من الشيخ، في اعتماده على شهادات هؤلاء العلماء،

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٤٥

(٢) المصدر نفسه ص ٣٩٧.

(٣) قال المحقق «وفسره الجاحظ فقال: قالوا: «الضهل»: التقليل، و«الشكر»: الفرج، و«الشبر»: النكاح، و «تطلها»: تذهب بحقها، يقال: دم مطلول. ويقال: «بئر ضهول» أي قليلة الماء» البيان ١/ ٣٧٨.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٩٨ – ٣٩٩،

رغم ثقته في علمه وفهمه، وتحققه من صواب كشفه، إنما يدل على أمور:

أ – إخلاص عبد القاهر في خدمته للعلم، وحرصه الشديد على هذا الإخلاص.

ب – التواضع الواضح.

ج – الأمانة العلمية التي تدفعه إلى السعي لتقوية الحق الذي هُدي إليه.

د– اعتقاد هذا العالم الرباني أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، جعل اعتزال الجاحظ غير مانع له من تقديمه في مجال الأدب والنقد، وجعل الشيخ يستند إلى شهادته في مواضع متفرقة من الكتاب.

## خامسًا: توظيف الشهادة بالمعنى المجازي في كتاب «دلائل الإعجاز»:

كان الشيخ في حاجة إلى الشهادة بمعناها المجازي أيضا، ليدل على صدق النظرية النحوية التي لا محيد عنها في الاستدلال على مكمن المزية في الكلام، أي كلام وأيًّا كان مصدره.

ويأتي في سياق المعنى المجازي للشهادة كل الشواهد البلاغية الواردة في الكتاب وبمختلف أنواعها، وهي تلك التي قصد منها التدليل على صحة جانب أو جوانب من نظريته النحوية في تفسير المزايا والخصائص، وصولا إلى مرتبة الإعجاز.

ولكي يقطع الشيخ على المجادلين طريقهم، وعلى أصحاب الأهواء أهواءهم، لم يشأ أن يعتمد اعتمادًا كليًا على الشاهد القرآني في إثبات المزايا والخصائص، ولكنه توجه صوب كلام العرب **قائلًا**: «قد قطعت عذر المتهاون، ودللت على ما أضاع من حظه، وهديته لرشده، وصح أن لا غنى بالعاقل عن معرفة هذه الأمور، والوقوف عليها، والإحاطة بها، وأن الجهة التي منها يقف، والسبب الذي به يعرف استقراء كلام العرب وتتبع أشعارهم والنظر فيها»[1]

وخص الشعر بالذكر دون غيره من سائر كلام العرب **بقوله**: «وذاك أنا إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن، وظهرت وبانت وبهرت، هي أن كان على حد

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٠ – ٤١ .

من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهيا إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالا أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر، الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والذي لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيهما قصب الرهان، ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل وزاد بعض الشعر على بعض»[(١)].

ولا يدل اعتماد عبد القاهر على الشاهد الشعري بصورة ملحوظة، على تقصير تجاه الشاهد القرآني كما ذكرت ذلك الدكتورة عائشة عبد الرحمن بقولها «وقد يقدم بين حين وآخر شاهدا قرآنيا على سبيل التنظير»[(٢)]، بل إن الواقع يشير إلى عكس ذلك تمامًا، وأن الشيخ قد خصَّ الشاهد القرآني **بمرحلة التتويج**.[(٣)] فإن العبرة ليست بالكم بل بالكيف، ويستطيع المتلقي تلمس ذلك الورع الشديد، وتلك الهيبة العظيمة التي يشعر بها الشيخ وهو يتحدث في مبحث الفصل والوصل مختتما كلامه في كل مرة بقوله «والله أعلم».

وبالوصول إلى هذه المرحلة من البحث، تبين أن عبد القاهر الجرجاني قد أسس نظريته في إدراك المزية، وتكوين السلم الذي سيصعد به إلى إدراك مرتبة الإعجاز على عنصرين أساسيين وهما:

**١ – معاني النحو**

**٢ – تتبع هذه المعاني في الشعر**

ومن طريقهما يتحقق الهدف المنشود وهو إدراك سر الإعجاز، وهو سر كبير لا ينال إلا بالبحث والتمحيص وبذل الجهد، **قال** الشيخ: «وإذا نظرت إلى»الفصاحة«هذا النظر، وطلبتها هذا الطلب، احتجت إلى صبر على التأمل، ومواظبة على التدبر، وإلى همة تأبى لك أن تقنع إلا بالتمام، وأن تربع إلا بعد بلوغ الغاية».[(٤)]

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٨- ٩ .
(٢) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ص ١٢٣ .
(٣) مدونة الشواهد ٢/ ٢٨١ .
(٤) دلائل الإعجاز ص ٣٧.

وقال في موضع آخر: «وليت شعري من أين لمن لم يتعب في هذا الشأن ولم يمارسه ولم يوفر عنايته عليه أن ينظر إلى قول الجاحظ وهو يذكر إعجاز القرآن..... وقوله وهو يذكر رواة الأخبار..... وقوله في بيت الحطيئة..... فيفهم منه شيئا أو يقف للطابع والنظام والنحت والسبك والمخارج السهلة على معنى أو يحلى منه بشيء، وكيف بأن يعرفه ولربما خفي على كثير من أهله» [1].

كما تبين أيضا السبب الذي من أجله صدر كتابه بالحديث عنهما، وإظهار الحاجة الماسة إليهما لكل من رام البحث في الإعجاز، أو رغب في الحديث عنه، فإنهما ساقا هذا الهدف وقدماه.

## سادسًا: أهداف الشواهد في كتاب «دلائل الإعجاز»:

للشواهد في الكتاب أهداف رئيسة ثلاثة، يصحبها عدد من الأهداف الجانبية المرافقة لتلك الأهداف، والأهداف الأساسية هي:

**الهدف الأول:** التفنيد بالشاهد والدليل لكل ما اعتمد تفسيرًا لوجه الإعجاز قبل الشيخ عبد القاهر الجرجاني، وكان ذلك التفسير لا يصلح أن يكون وجهًا.

**الهدف الثاني:** تأسيس النظرية النحوية، للاستدلال على مزايا النظم وترقيه إلى مرحلة الإعجاز.

**الهدف الأخير:** التدليل على أن الإخفاق في إنجاح الهدفين الأول والثاني، ينتج عنه أخطاء شنيعة تتهدد المعنى في النص القرآني، الأمر الذي ينعكس مباشرة بالسلبً على الدين.

## سابعًا: الشيخ يربط البحث في الإعجاز بالدين والعقيدة:

أشار الشيخ في مواضع متعددة من الكتاب، إلى العلاقة الوطيدة بين البحث في أمر

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٥١ .

الإعجاز وبين العقيدة، وهذه فقرات ألمح فيها الشيخ إلى هذا الارتباط:

- «وقد وصلت بأخره إلى كلام من أصغى إليه، وتدبره تدبر ذي دين وفتوة، دعاه إلى النظر في الكتاب الذي وضعناه، وبعثه على طلب ما دوناه» (١)

- «فينبغي لكل ذي دين وعقل، أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه، ويستقصي التأمل لما أودعناه، فإن علم أنه الطريق إلى البيان، والكشف عن الحجة والبرهان تبع الحق وأخذ به، وإن رأى أن له طريقا غيره أومأ لنا إليه، ودلنا عليه» (٢)

- «وآراء لو علموا مغبتها، وما تقود إليه، لتعوذوا بالله منها، ولأنفوا لأنفسهم من الرضا بها، ذاك لأنهم بإيثارهم الجهل بذلك على العلم، في معنى الصاد عن سبيل الله، والمبتغي إطفاء نور الله تعالى». (٣)

- «وآثرتَ التي هي أتم لدينك وفضلك، وأنبل عند ذوي العقول الراجحة لك، وذلك أن تعرف حجة الله تعالى من الوجه الذي هو أضوأ لها وأنوه لها» (٤)

- «وهو باب من العلم، إذا أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة، ومعان شريفة ورأيت له أثرا في الدين عظيما، وفائدة جسيمة، **ووجدته سببا إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل، وإصلاح أنواع من الخلل فيما يتعلق بالتأويل.** (٥)

- «وأن يسألك السائل عن حجة يلقى بها الخصم في آية من كتاب الله تعالى، أو غير ذلك فلا ينصرف عنك بمقنع» (٦)

وأهداف الشيخ هذه أهداف كبيرة، لا يسع البحث تغطية شواهدها جميعًا، والذي

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣-٤
(٢) المصدر نفسه ص ٨ تحت عنوان «المدخل في دلائل الإعجاز»
(٣) المصدر نفسه ص ٨ تحت عنوان «فاتحة المصنف في مكانة العلم»
(٤) المصدر نفسه ص ٣٧
(٥) المصدر نفسه ص ٤١
(٦) المصدر نفسه ص ٤١ – ٤٢

سيتناوله البحث إنما هي شواهد الهدف الثاني، أما بقية الأهداف وبخاصة منها الهدف الأول، فإنها بحاجة إلى بحث مستقل لأنه لا يمكن الوصول إلى تجلية أمرها إلا بعقد الكثير من المقارنات بين النصوص.

* * *